الدرس (06): ترجمة مصطلحات المنهج الاجتماعي

تمهيد:

المنهج الاجتماعي في النقد الأدبي منهج سياقي، يهتم بدراسة أثر المجتمع في النصوص الأدبية، منطلقا أساسا من فكرة أن الأديب ابن بيئته، وأنه لا يستطيع إلا التعبير بلسانها، وبالمثل يتدخل المجتمع في تكوين الأديب اجتماعيا وثقافيا، وقد انتقلت مفاهيم هذا المنهج وتصوراته ومصطلحاته من النقد الغربي إلى النقد العربي شأنه في ذلك شأن بقية المناهج النقدية.

النقد الاجتماعي (La sociocritique)

أفاد النقد الاجتماعي من مقولات علم الاجتماع في فهم وتفسير علاقة الأدب بالمجتمع، حتى ظهر في هذا السياق ما عُرف بعلم الاجتماع الأدبي الذي يختلف عن النقد الاجتماعي من حيث مجال الدراسة؛ ف «إذا كان علم الاجتماع الأدبي يدرس أشكال النشاط المتبادل بين كل الأشخاص الذين يتدخلون في عالم الأدب، فإن النقد الاجتماعي يفسر نوعيا كيف أن الكتابة حدث ذو طبيعة اجتماعية»[1].

وهذه الطبيعة الاجتماعية هي التي تحقق اجتماعية الأدب، وتعكس مدى التزام الأديب تجاه مجتمعه، ومدى انفعاله بقضاياه ومشاكله، وبذلك يكون «العمل الأدبي – حسب هذا الاتجاه – صورة حية وناطقة لمختلف الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ففيه تنعكس صورة الصراع الطبقي لمختلف فئات المجتمع، وفيه تظهر طموحاتهم وأحلامهم ورغباتهم وكل ما يشكل تصورهم وفكرهم»[2].

ولعل فكرة الأدب الناجح أو الأدب الحقيقي جاءت من هذا الالتزام بنقل صورة واقعية حية عن بيئة اجتماعية معينة، وهذا هو موضوع الدراسة في النقد الاجتماعي، لكن هذه المقاربة المنهجية سرعان ما تقيدت بهاجس تفسير الأدب بالسياق الاجتماعي الذي أنتجه، فسقطت في فخ تغييب الأثر الجمالي في النص الأدبي وتعاملت مع على أنه وسيلة للفهم بعد أن كان غاية للتفسير.

[1]– إنريك أندرسون إمبرت، مناهج النقد الأدبي، تر. الطاهر أحمد مكي، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، 1991، ص117.

[2]– حسن مسكين، مناهج الدراسات الأدبية الحديثة من التاريخ إلى الحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 2010، ص60.

ولم تعد مقولة "الأدب مرآة المجتمع" تفي بالغرض، بحكم التفاوت القائم بين الأدباء في معالجتهم للواقع الاجتماعي ذاته، وفي هذا السياق بدأت تظهر المقولة البديلة أو المعارضة "الأدب انكسار للواقع"؛ التي «تتحدث عن الأدب كونه انكسارا (Refraction) وليس انعكاسا (Reaction) للواقع الاجتماعي، ومن هنا فالأدب لا يعبر عن المجتمع، بقدر ما يعبر عن تصور الأديب لمجتمعه»[1].

ذلك أن المجتمع واحد لكن الرؤية الأدبية للوقائع الاجتماعية تختلف من أديب لآخر، فقد تكون هذه الرؤية واصفة تتطلع إلى الموضوعية ما استطاعت إل ذلك سبيلا، وقد تكون متحفظة بشأن بعض القضايا، وقد تكون مستنكرة تسعى إلى محاكمة الواقع طلبا للتغيير، وغير ذلك المهم أن المجتمع باعتباره قيمة أو موضوع يبقى كذلك في حقيقته وأنه يتمنع عن الانعكاس الحرفي في أعمال الأدباء؛ يكفي أنه من طبيعة مختلفة.

ترجمة المصطلح في النقد الاجتماعي:

تعددت مصطلحات النقد الاجتماعي، وقد مرّ أغلبها على عتبة الترجمة، حيث أقبل الناقد العربي على نقلها من الخطاب النقدي الغربي إلى الخطاب النقدي العربي، وتوظيفها في مقارباته للنصوص الأدبية باختلاف أجناسها، ولعل أكثرها تداولا المصطلحات الآتية:

مصطلح الانعكاس (Reflection)

اعتمد النقاد في مقارباتهم النقدية الاجتماعية مصطلح الانعكاس، الذي لم يكن مجرد مصطلح عابر في النقد الاجتماعي بل اتسع مجال توظيفه، حتى ارتقى إلى مستوى النظرية، ومن النقاد الذين ساهموا في تحديد ملامح هذه النظرية الناقد المجري لوكاتش (1886-1971) الذي استخدم مصطلح الانعكاس بالعودة إلى «النظرية الواقعية القديمة التي ترى الرواية انعكاسا للواقع، لا بمعنى أنها تقتصر على وصف المظهر السطحي للواقع، بل بمعنى أنها تقدم انعكاسا أكثر صدقا وحيوية وفعالية للواقع، فالانعكاس معناه "تشكيل بنية ذهنية" تصاغ في كلمات، وعادة ما يكون لدى الناس انعكاس للواقع؛ أعني وعيا لا يقتصر على الموضوعات الخارجية، بل يشمل الطبيعة الإنسانية والعلاقات الاجتماعية»[2].

[1]– إبراهيم السعافين وخليل الشيخ، مناهج النقد الأدبي، تحكيم شكري عزيز الماضي، منشورات جامعة القدس المفتوحة، 2008، ص113.

[2]– رامان سلدن، النظرية الادبية المعاصرة، تر. جابر عصفور، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (عبده غريب)، القاهرة، مصر، 1998، ص55.

وقد عرف الأدب ظاهرة الانعكاس بوصفها أسلوبا في الكتابة، ولم يكن الأمر حكرا على الرواية وحدها بل شمل كثيرا من الأجناس الأدبية؛ ذلك أن «الأدب – في المحصلة – ... هو انعكاس للحياة بأبعادها كافة، ... مما يجعل التاريخ السياسي والاجتماعي ضرورة حتمية لفهم الأدب، وتفسيره، والحكم عليه»[1].

معنى ذلك أن الانعكاس انطباع ذهني ينقله الأديب في هيئة كلمات معبرة، وبأسلوب مخصوص؛ حيث يكشف لنا عن وعيه الاجتماعي تجاه الواقع الذي يعيش فيه، وأن فهم ما يقدمه من رسائل أدبية مرهون بتحليل معطيات وملابسات السياقين التاريخي والاجتماعي.

مصطلح المحاكاة (Mimétisme)

يحيلنا مصطلح الانعكاس إلى مصطلح آخر أقدم منه؛ ألا وهو مصطلح المحاكاة (Mimétisme) في الفرنسية، و(Mimetism) في الانكليزية؛ و«تطلق المحاكاة بوجه عام على التقليد والمشابهة في القول، أو الفعل، أو غيرهما، ومنه قول أرسطو: "الفن محاكاة للطبيعة" ... والمحاكاة أيضا هي التقليد اللاشعوري الذي يحمل الإنسان على الاتصاف بصفات الذين يعيش معهم، كتقليد حركاتهم وسلوكهم واقتباس لهجاتهم وأفكارهم»[2].

ومن الطبيعي أن يتمتع الإنسان الفنان بهذه الكفاية الاجتماعية التي تمكنه من محاكاة الواقع؛ كونه بكل بساطة محصلة وقائع اجتماعية، فهو ابن البيئة التي ولد بها، يحمل روحها من عادات وتقاليد ومفاهيم وتصورات وهو قادر على التعبير عنها، لكن من وجهة نظره الخاصة التي تعبر حرفيا وبالضرورة عن الحقيقة الاجتماعية.

مصطلح التوفيق أو التوليف (médiation)

قاد مصطلح الانعكاس إلى توظيف مصطلح آخر على أساس المقاربة الدلالية لعلاقة الأدب بالبيئة الاجتماعية، يتمثل في مصطلح التوفيق أو التوليف؛ الذي يفترض وجود حالة من التضاد والمعارضة بين عناصر محددة، بخلاف الانعكاس الذي لا يشترط ذلك مبدئيا؛ «ومن هنا قدّم هذا المفهوم الجديد تصورا متميزا لموضوع العلاقة بين الأدب والمجتمع، تجاوز مسألة انعكاس الواقع مباشرة في الأدب، وأكد أن الواقع يمر بعملية "توفيق"

[1]– وليد قصّاب، مناهج النقد الادبي الحديث – رؤية إسلامية، دار الفكر آفاق معرفة متجددة، دمشق، سورية، ط2، 2009، ص36.

[2]– جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، ج2، الشركة العالمية للكتاب (ش.م.ل) طباعة – نشر– توزيع/مكتبة المدرسة / دار الكتاب العالمي / الدار الإفريقية العربية / دار التوفيق، بيروت، لبنان، 1994، ص349-350.

تغير محتواه الأصلي، أو على الأقل تحور صورته من خلال إسباغها لنسق خاص، أو شكل خاص، وبالتالي محتوى خاص، على هذا المحتوى الواقعي الخارجي»[1].

الواقع ليس واحدا على الدوام، فهو متغير بطبيعته، قد يمر بمراحل ولحظات تجعل منه مناقضا لذاته، حيث تتغير المفاهيم بشأن الأحداث والوقائع التي يعيشها الإنسان، وهذا ما نجد له أثرا لدى الأدباء في نقلهم للصور الاجتماعية في الوقت الذي ينقلون فيه موقفهم من هذه المتغيرات لا المتغيرات نفسها.

مصطلح الالتزام (Engagement)

يعدّ مصطلح الالتزام من المصطلحات المؤسسة للفكر النقدي الاجتماعي، يقابله في اللغة الفرنسية (Engagement)، وفي اللغة الانكليزية (Commitment)؛ بمعنى «التزم الشيء، أو العمل: أوجبه على نفسه، والملتزم هو الرجل الذي يوجب على نفسه أمرا لا يفارقه، ومنه العقل الملتزم، وهو العقل الذي ينظر إلى ما تتضمنه أحكامه من النتائج الاجتماعية والاخلاقية بعين الجد والرصانة، أو العقل الذي يقر بوجوب وفائه بعهده، وبضرورة محافظته على حق الأمانة في تأدية رسالته، ومن شرط هذا الالتزام أن يكون له غاية اجتماعية أو خلقية، وأن يكون مبنيا على مبدأ يقبله المرء بإرادته العاقلة»[2].

وقد اختلفت محددات الالتزام؛ كونه ليس حكرا على الدراسات الأدبية والنقدية بل نجده في مختلف مجالات المعرفة الأخرى؛ و«الالتزام –في الأصل– مصطلح فلسفي يعني اعتناق وجهة نظر معينة في الحياة، يدافع عنها الفيلسوف، ويدلّل عليها بكل الوسائل الفكرية التي يملكها، ولكن هذا المصطلح أكثر ما اتّضح في الأدب»[3].

والالتزام قبل أن يفرض حضوره بوصفه مصطلحا نقدي، فرض أثره في الممارسة الأدبية، حتى صار مذهبا له تقاليده، ورواده، من منطلق «اعتبار الكاتب فنّه وسيلة لخدمة فكرة مُعيّنة عن الإنسان لا لمجرد تسلية غرضُها الوحيد المتعة بالجمال، والأديب الملتزم هو – على حدّ قول الدكتور محمد مندور – "المقدّر لمسئوليته إزاء قضايا الإنسان والمجتمع في عصره»[4].

---

[1]– صبري حافظ، أفق الخطاب النقدي – دراسات نظرية وقراءات تطبيقية، دار شرقيات للنشر والتوبع، القاهرة، مصر، ط1، 1996، ص100.

[2]– جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، ج1، الشركة العالمية للكتاب (ش.م.ل) طباعة – نشر– توزيع/مكتبة المدرسة / دار الكتاب العالمي / الدار الإفريقية العربية / دار التوفيق، بيروت، لبنان، 1994، ص118.

[3]– وليد قصّاب، مناهج النقد الادبي الحديث – رؤية إسلامية، ص40.

[4]–كامل المهندس ومجدي وهبة، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ط2، 1984، ص58.

وممارسة الالتزام في الكتابة أو اتخاذه مذهبا لا يكون بالتعبير السطحي عن الواقع ومناقشة مظاهره وقضاياه نقاشا لا يتخطى حدود الوصف الذي لا يرى من المشهد غير تفاصيله الظاهرة، بل لا بد من التفكير قبل التعبير والتصوير، حتى تتكشف وجهة نظر الكاتب ويظهر موقفه من القضايا الاجتماعية التي يعالجها.

والالتزام في حقيقة أمره سلوك اجتماعي مكتسب في حد ذاته، فلا نستطيع أن نتصور مثلا وجود إنسان لا يلتم في حياته بشيء، ولهذا «كل فكرة يقيمها الأديب ويجسدها في رؤية معينة، تعد التزاما فكريا أو فنيا من طرفه، يعبر عن موقف خاص به، حتى وإن سعى إليه من خلال تلافيف الغموض، أو التجريد؛ لأن الحيثية التي يستند إليها إنما تشكل ثقافة الطبقة التي ينتمي إليها، انتماء إذعان وقبول، أو انتماء رفض وتجاوز فهي جماع مكونات عناصره الحياتية، تتسع لتشمل الحياة كلها بتصوراتها وقيمها المختلفة وما رسب فيها من ظل الماضي، وعلق من أساطير ورموز»[1].

ونظرا لأهمية التفكير الملتزم في توجيه العلاقة بين الأدب والمجتمع، تطور هذا المفهوم ارتقى هو الآخر إلى مستوى النظرية؛ حيث «ظهر ما يسمى بنظرية الالتزام في الأدب التي تعد الأديب صاحب رسالة ... وموقف اجتماعي يعبر فيه عن رؤية خاصة للعالم مرتبطة به، ليس بوصفه فردا معزولا، وإنما بوصفه فردا من طبقة اجتماعية لها مصالح وتطلعات وطموحات في واقع اجتماعي مطبوع بالصراع والتدافع...»[2].

وحسب هذه النظرية فإن الأدب الجيد الذي ينال درجة القبول والاستحسان لا يكون كذلك إلا إذا كان ملتزما في تعبيره عن الواقع؛ بمعنى أن يبتعد الأديب ما استطاع عن مناقشة مواضيع ذاتية تخصه كالغزل مثلا حيث العاطفة والميول وإظهار الرغبات الشخصية، ويكرس أدبه لخدمة المجتمع وتناول مواضيع تهم الجماعة وتتصل بهمومهم وانشغالاتهم.

مصطلح الاجتماعية (Sociologie)

عمد النقاد العرب في تطبيقاتهم النقدية إلى التعبير عن مصطلح الاجتماعية بمصطلح السوسيولوجية تعريبا للمصطلح الأجنبي (Sociologie)؛ وقد أثار بعضهم إشكالية التمييز بين المصطلحين: سوسيولوجية الأدب (Sociologie de la littérature)، والسوسيولوجية الأدبية (Sociologie littéraire)؛ حيث

[1]– حبيب مونسي، نقد النقد المنجز العربي في النقد الأدبي دراسة في المناهج، منشورات دار الأديب، وهران، الجزائر، 2007، ص76.

[2]– أنور عبد الحميد الموسى، علم الاجتماع الأدبي (... منهج سوسيولوجي في القراءة والنقد)، دار النهضة العربية، (د.ت.ط)، ص46-47.

يتصل المصطلح الأول بمفاهيم ذات علاقة بالكتاب والمؤسسة الأدبية من حيث النشر والرواج والتوزيع والجمهور؛ وهي تطبيقات من اختصاص مناهج علم الاجتماع، أما المصطلح الثاني فهو من اختصاص مناهج علم الأدب، خاصة المنهج النقدي الذي يدرس النص دراسة دلالية، ويسعى لتأويله مستعينا بالبحث في مختلف السياقات المنتجة له، خاصة السياق الاجتماعي[1].

وبغض النظر عن الدور المعرفي لمفهوم الاجتماعية وما ينطوي عليه من دلالات اصطلاحية مختلفة فإنه يعدّ من المفاهيم التأسيسية التي قام عليها الخطاب النقدي الاجتماعي، إن لم نقل أنه من أهمها على الإطلاق، إلى درجة أنه لا نقد خارج سياق المجتمع، أقله بالنسبة لأنصار هذا الاتجاه.

خلاصة:

نخلص أخيرا إلى القول بأن المصطلح في المنهج النقدي الاجتماعي؛ هو من المصطلحات الوافدة في الممارسات النقدية العربية، وقد تعامل معه النقاد كعادتهم إما بالترجمة أو التعريب، غير بعيد عن إشكالية المرجع الثقافي للمصطلح الأجنبي التي تكاد تحاصر المصطلحية النقدية العربية من جميع جوانبها وتتحكم في توجيهها.

[1]– ينظر: عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد (متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص125-126.